مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بتيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد 10/ العـدد 01/ جوان (2026)، ص.ص. 246-258

الهوية المقاومة: قراءة ما بعد كولونيالية في روايات توني موريسون

Resistant Identity: A Postcolonial Reading of Toni Morrison's Novels

سميرة قروي
samira.garoui@univ-khenchela.dz
جامعة عباس لغرور خنشلة
مخبر المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحداثية في الفكر واللغة والأدب (الجزائر).

تاريخ الاستلام: 2026/02/15 تاريخ القبول:2026/05/05 تاريخ النشر: 2026/06/02

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى استكشاف كيفية معالجة الروائية الأفروأمريكية توني موريسون لقضايا الهوية والعنصرية في أعمالها الأدبية، مع التركيز على تشكّلات الهوية لدى الشخصيات الملونة في سياق مجتمع قائم على التراتبية العرقية. وتتمحور إشكالية البحث حول كيف نجحت موريسون في تصوير معاناة المجتمع الأسود الأمريكي من الوصم باللون والإقصاء، وإلى أي مدى استطاعت شخصياتها الروائية صنع هوياتها الخاصة والحفاظ عليها رغم الضغوط الاجتماعية والعنصرية؟ وكذا الأساليب الفنية والشعرية التي وظفتها الكاتبة لتعرية الميثولوجيا البيضاء وتفكيك خطابات التمييز العنصري.

خلص البحث إلى أن موريسون نجحت في توظيف فنها الروائي كأداة لإسماع صوت المهمّشين من الأمريكيين السود، وتخليد معاناتهم التاريخية من الرق والتمييز العنصري. كما استطاعت بمهارة شعرية تعرية الخطابات العنصرية التي أسست للوصم باللون والتراتبية العرقية، مبرزة الخراب القيمي والروحي الذي خلّفته هذه الممارسات على الهوية الفردية والجماعية للسود. كما أظهر البحث أن أعمالها ما بعد الكولونيالية تمثل محاولة جادة لاستعادة الذاكرة الجماعية ومقاومة النسيان التاريخي، مؤكدة على إمكانية بناء هوية خاصة ومستقلة رغم قسوة الظروف الاجتماعية القائمة على الإقصاء والتهميش.

كلمات مفتاحية: رهاب اللون، الهوية الزنجية، الثقافة البيضاء، التراتبية.

Abstract:

This research explores how African-American novelist Toni Morrison addresses identity and racism in her works, focusing on identity formation among colored characters within a racially hierarchical society. It examines how she portrayed Black American suffering from color stigmatization and whether her characters could maintain their identities despite racial pressures.

The study concluded that she successfully gave voice to marginalized Black Americans, immortalizing their historical suffering from slavery and discrimination. Through poetic skill, she exposed racist discourses and revealed the moral and spiritual devastation inflicted on Black identity. Her postcolonial works represent an attempt to reclaim collective memory.

Keywords: *Color phobia; Identity Negroid; White culture; Hierarchy.*

-مقدمة:

شكّلت قضايا الميز العنصري والوصم باللون والتراتبية العرقية جرحًا عميقًا في الوعي الإنساني، وتركت آثارًا مدمرة على الهوية الفردية والجماعية للمجتمعات المهمشة. فقد أسست هذه الممارسات اللاإنسانية لخطابات إقصائية قائمة

على لعبة الجنس واللون، مما أفضى إلى شرخ هوياتي عميق عانى منه الموصومون عبر التاريخ. وفي هذا السياق، برزت الرواية ما بعد الكولونيالية كفضاء أدبي يستعيد أصوات المهمشين ويعيد بناء ذاكرتهم الجماعية، محاولةً تفكيك الخطابات العنصرية وكشف زيف الميثولوجيا البيضاء التي شرّعت للاستعباد والتمييز. ومن بين الأصوات الروائية البارزة في هذا المجال، تبرز الكاتبة الأفروأمريكية توني موريسون التي خصصت أعمالها لتصوير معاناة السود الأمريكيين وكفاحهم من أجل بناء هوياتهم الخاصة في مجتمع قائم على الإقصاء والتهميش.

تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول السؤال المركزي التالي: ما هي حدود الشعرية والملامح الفنية والجمالية التي وظفتها توني موريسون في رواياتها لتصوير تشكّلات الهوية لدى الشخصيات الملونة؟ وكيف نجحت في تمثيل جهود الشخص الملوّن في صنع هويته الخاصة والحفاظ عليها داخل مجتمع يجعل من اللون وصمًا وعاملًا للإقصاء والشجب؟ وما هي الاستراتيجيات السردية والجمالية التي اعتمدتها الكاتبة لتعرية الخطابات العنصرية وإبراز الخراب القيمي والروحي الذي خلّفته على الهوية السوداء؟

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها: استكشاف الأبعاد الشعرية والفنية في أعمال توني موريسون الروائية وعلاقتها بتمثيل قضايا الهوية والعنصرية؛ تحليل كيفية تصوير الكاتبة لتجربة الوصم باللون وتأثيره على الهوية الفردية والجماعية؛ الكشف عن الاستراتيجيات السردية التي وظفتها موريسون لتفكيك الميثولوجيا البيضاء وإعادة بناء الذاكرة الجماعية للسود؛ وأخيرًا، بيان مدى نجاح شخصياتها الروائية في بناء هوياتها المستقلة رغم الضغوط الاجتماعية والعنصرية.

وتندرج هذه الدراسة ضمن حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية التي تشتغل على أسئلة الكينونة والهوية وفلسفة الوجود، وهو مجال اكتسب أهمية بالغة منذ أعمال إليس كاشمور حول صناعة الثقافة السوداء، وهومي بهابها في بحثه عن موقع الثقافة، وبيكو باريك في معالجته للسياسات الجديدة للهوية، وروم هاريه في دراسته لميتافيزيقا السرد وتفرد الذات وتعددها، إضافة إلى الإسهامات المهمة لمجلة **Screen** في مسائل العنصرية والكولونيالية والتمثيل. وسنعتمد في هذا البحث على المنهج التحليلي النقدي الذي يجمع بين التحليل الأدبي والمقاربات الثقافية وما بعد الكولونيالية، بهدف الكشف عن الأبعاد الجمالية والإيديولوجية في نصوص موريسون وعلاقتها بسياقاتها الاجتماعية والتاريخية.

1- توني موريسون ورواية اللون الأفرو-أمريكية:

توني موريسون* روائية وناقدة زنجية أمريكية، ذات جذور إفريقية، كتبت روايات كثيرة ضمنتها ثيمة الهوية والعرق والزنوجة، ودور اللون في رسم الهويات بين الدول المتباينة وفي الدولة الواحدة، وما ركزت عليه أكثر هو كيف تُجلّى هذه الثيمة فنيا. لقد عمدت إلى تخليد آلام ومعاناة الزنوج بالفن حتى لا تصير من منسيات التاريخ، فجلّ كتاباتها وخطاباتها ذات توجّه عرقي، ترصد التمايزات اللونية والعرقية والإثنية المؤدلجة، وتعري الصور المنمطة المبنية على "اللون بوصفه الدالول الثقافي/ السياسي على الدونية والانحطاط، والبشرة بوصفها هويته الطبيعية"[1] فما حاولت أن تُسمِعه في جملة أعمالها هو صوت المجتمع الأمريكي الأسود بعد التهميش والازدراء والنبذ والإقصاء الذي تعرّض له العرق الأسود بعد أن رُمِيَ بالتخلّف والبدائية والوحشية، وكرّس النص الديني الكنسي هذا حين قضى بعبوديته وخدمته الأبدية للرجل الأبيض.

لذلك فإن ما تحاوله الكاتبة، هو شجب هذه النظرة العرقية التي تقول بمركزية الرجل الأبيض، وتميّزه طبقيا واجتماعيا وثقافيا، وتفوقه على باقي الأعراق الأخرى، والتي حاول إقناع الشعوب بها، تقول موريسون في إحدى رواياتها ".. أملوا أن يبرهنوا على الصحة المطلقة لفرضية دي جوبينو القائلة: "بأن كل الحضارات تنشأ من الجنس الأبيض، وأن لا حضارة توجد دون مساعدتهم، وأن المجتمع يبقى عظيما وباهرا فقط حين يحافظ على دم المجموعة النبيلة التي أبدعته."[2]

إن هذه النظرة المتعالية وما جرّته على الجنس الأسود وعلى الهنود وغيرهم من مآسي هو ما تحاول توني موريسون شجبه فنيا، بتفنيد كل تلك الترهات العنصرية البغيضة، والميثولوجيا البيضاء الواهمة، ملتزمة في كل ذلك نوعا من الجرأة الخاصة في مخاطبة عنصرية أمريكا البيضاء الكامنة، لقد كانت من الناحية المجازية كما يقول إيليس كاشمور **Ellis Kachmor** "تمسك بمرآة لأمريكا البيضاء"[3] لتريها وجهها الأسود البغيض الذي تواريه.

إن الكاتبة تذهب عميقا في ملف الاثنية والعنصرية، وتحاول كتاباتها إعادة بناء الإنسان الجديد المكبّل بتركة ثقيلة من الضياع والاستلاب الهوياتي، الإنسان الأسود السحنة الذي واجه ويواجه رهاب العرق الآخر واستغلال الرجل الأبيض، لذلك أثقلت جلّ شخصياتها مشاعر الانكسار والإحباط تجاه ماضيها وتاريخ عبوديتها ومخاض الحرية الذي كابدته، فكانت جلّ كتاباتها تنضح ألما وغصصا.

وتمرّر الكاتبة من خلال رواياتها المواقف والرؤى التي عاشتها بشكل مباشر، أو رويت لها، وتستثمر الأحداث التاريخية وتضع لها متونا سردية موازية. ويذهب بها حزنها في تقصي هذه الأحداث بعيدا إلى تاريخ الجريمة الإنسانية، تاريخ الجريمة الدينية التي اختلقها الإنسان ليستغل الأجناس الأخرى، وكيف مكّنه هذا من أن يرضي نرجسيته، وأن يحقق وجوده المؤلّه، وأن يصنع التاريخ من خلال لعبة الجنس واللون والترويض الديني.

هكذا اتخذ التمييز والفوقية والقهر بعامل اللون تمظهرات وألوان اصطبغ بها التشكيل السردي في أعمال الكاتبة، في ثيماته وشخوصه ووصفه وسرده ومكانه وزمانه منذ منجزها الروائي الأوّل "العين الأكثر زرقة"، التي بدأت بها مسيرتها الروائية عام 1970 وهي تقترب من الأربعين، ثم مع مجموعة الروايات التي صدرت بعدها: سولا (1974)، أغنية سليمان (1977)، طفل القطران (1981)، محبوبة (1987)، جاز (1992)، فردوس (1999)، غرام (2003)، الديار...

إن اشتغال توني موريسون على هذه الثيمات منح كتاباتها صورة هوية للرواية الأفروأمريكية، هذه الرواية التي توازي الوطن، الحرية، الانتماء أكثر منها رواية سرد. فموريسون أرادت أن تقول "شيئا هاما يمكن أن يدوم أثره طويلا" كما تقول في رواية فردوس[4] وكان لها هذا من خلال توجهها الهوياتي، على أن هذا الشيء لم تغبطه حق الجمالية والفنية والشاعرية؛ ففي الوقت الذي نجحت بكتاباتها في خلق هوية فكرية وأدبية، وفي إنتاج خطاب سياسي ديكولونيالي وازت به مكانة السود الاجتماعية والنفسية مع مكانة البيض، بنت رؤية جمالية ثقافية شعرية للبنية السردية لرواية اللون.

2- سياق كتابات توني موريسون:

يقول ميشال فوكو **Michel Foucault**: "إن الفكر ليس ما يجعلنا نؤمن بما نفكر أو نرضى بما نفعل بل هو ما يجعلنا نطرح مشكلة ما نحن عليه بالذات. ليس عمل الفكر أن يدين الشرّ الذي قد يسكن كل ما هو موجود، بل أن نستشعر الخطر الذي يكمن في كل ما هو مألوف وأن يجعل كل ما هو راسخ موضع إشكال."[5] من هذه الزاوية انطلقت توني موريسون، من استشعار الخطر الكامن في كل ما هو مألوف وراسخ في المجتمع الأمريكي المرتهن إلى ما يمكن نعته بالتراتبية أو الهرم الذي جعل على قمته البياض وفي قاعدته السواد، وبالتحديد من وضع الزنوج في هذا المجتمع لتقف على هويتهم المستلبة، بعد حالة الألفة للخضوع والخنوع والتنميط والإقصاء التي أملاها الرجل الأبيض وقانونه المسطّر عبر عصور وعصور وأجيال، وانعكاساتها في الماضي البعيد والحاضر القريب. ومنه فإن كتاباتها تدرج ضمن الدراسات الاثنية والعرقية التي تسعى لردّ الاعتبار للمجموعات البشرية التي تعرّضت للتهميش والظلم والقهر، وتحديدا المجموعات الاثنية الأفرو-أمريكية، ومن ثمة فهي تشتغل على هوية ثنائية تتضمن ما هو أمريكي وما هو أسود، ساعية إلى تركيز منزلة الأفارقة الأمريكيين وسط ثقافة بيضاء مهيمنة تكرّس مبدأ التعددية وفي الوقت ذاته مبدأ التراتبية والتفاضل، لتغدو كتاباتها نوعا من المروق والندّية في وجه الخطابات المهيمنة المتعالية التي أحلّت قديما تسويق العرق الأسود، وحديثا محو ثقافته وشجبه من كل مشهد. فهي تعكس التيار القومي الأسود المتمركز في صلب أمريكا غير الحالم بالارتحال أو بالعودة، بل المؤمن بكونه من تشكيلة المجتمع الأمريكي، وهذا يوجب نفي أي تحيّز أو تراتبية أو طبقية أو تمايز بين أفراد المجتمع الواحد. وهي إذ تفضح تلك التحيزات الذهنية والعرقية، وتحاول تفكيك أوهام هذه التحيزات الغربية وأوهام التمركز حول الذات عند الرجل الأبيض، تحاول محاربتها كذلك وتفكيكها عند الزنجي، وبخاصة بعد التفرعات اللونية التي نشأت عن تلاقحه مع الجنس الأبيض مولدا ما يسمى بـ"الخلاسيين".

3- كتابات موريسون والنظرية العرقية:

تأتي كتابات توني موريسون كاستجابة للنظرية العرقية في مجال الأدب والنقد "التي ظهرت في فترة ما بعد الحداثة ما بين سنوات الستين والتسعين من القرن العشرين، وقد ارتبطت هذه النظرية بنظرية ما بعد الاستعمار، ونظرية الجنوسة، والنظرية الجنسية، والنظرية النقدية النسوية، والنظرية الثقافية، والنظرية التاريخية الجديدة. وتهدف

هذه النظرية العرقية إلى الدفاع عن الكتابة السوداء التي استهدفت تقويض الميثولوجيا البيضاء، وقد ظهرت النظرية العرقية مع كتاب الحركة الزنجية **(la negritude)** التي استعملت الفرنسية والانجليزية والعربية للتعبير عن مقاصدها وأهدافها، وتأسست كذلك في الحقل الثقافي الأمريكي ضمن ما يسمى بالأدب الأسود. ومن هنا فالحركة الزنجية الإفريقية قد حاربت المستعمر من أجل نيل الاستقلال، والتنديد بالاستغلال البشع الذي تقوم به الدول الغربية الاستعمارية في حق شعوب المستعمرات، كما تغنت هذه الحركة بالحرية والتحرر، والانعتاق، والهوية، وفي المقابل رفضت العبودية، والاستغلال وهيمنة الرجل الأبيض." [6] وضمن هذا الأدب الأسود الذي تأسس في الحقل الثقافي الأمريكي كانت إسهامات وإضافات الكاتبة توني موريسون في النظرية العرقية. واذا كانت هذه الأخيرة (النظرية العرقية) تنبني "على منهجية ثقافية واثنولوجية تعمل على إبراز ما هو خصوصي واثني لدى جماعة أو أقلية اجتماعية ما، وذلك بالتركيز على العرق واللون"[7] فإن جهود الكاتبة لم تخرج من هذا الإطار؛ إذ أن عملها ينخرط في تركيز خصوصيات هوية السود في أمريكا، والبحث عن الثقافة السوداء في اللغة والتخييل والميثولوجيا والعادات والقيم التي تعرضت للتهميش والإقصاء والنفي لتستعين بها في بناء واستعادة هوية هذه الثقافات المقصية، لذلك عمدت في بعض أعمالها إلى استعادة الموسيقى، الأداء أو الإيقاع الأسود الذي شكّل في فترة من الفترات هوية الثقافة السوداء ولسانها وأنفاسها الناطقة، فقد كتبت رواية عنونتها بـ"جاز"، تلك الموسيقى التي كانت كأساس جديد للقوة بالنسبة للسود، يقول بن سيدران في مقدمة كتابه **Black Talk** الذي نشر سنة 1971: "ليست الموسيقى انعكاسا لقيم الثقافة السوداء فحسب، ولكنها لحد ما الأساس الذي قامت عليه."[8] كما غاصت في تحليل الشخصية السوداء الخانعة أو المتمرّدة، المستلبة التي تريد التماهي في الشخصية البيضاء، أو تلك التي تتحدى البياض وتجعل السواد ندا له يوقّع جمالا لا يستطيعه البياض.. إن كتابات موريسون هي ثورة على النسق القيمي الأبيض المهيمن، ونسف للأصنام التي رسمها، وتحطيم لتفوقه، وتنكّر لادعاءاته، ونفي كامل لاعتبار الأسود تابعا وملحقا بل وغير مرئي.

4- معضلة اللون والبعد الهوياتي في أعمالها:

إن توني موريسون قد اشتغلت على ثيمة "معضلة اللون" في كلّ أعمالها، إلا أن المقام لا يسمح بالوقوف على كتاباتها كلها، لذلك انتقينا روايتين فقط للتحليل؛ رواية "العين الأكثر زرقة" ورواية "ليكن الربّ في عون الطفلة" لأنه يتجلى فيهما سؤال جوهري يتحدد بالطرح الآتي: هل الهوية مسرح لآليات وقوى تعمل من ورائنا وتتكلم عبرنا، وتفلت من سيطرتنا أحيانا وتعارض مشيئتنا؟ ما مدى تمكّن الشخص الملوّن من صنع هويته الخاصة والحفاظ عليها، في مجتمع قائم على التراتبية ومثير لمعضلة اللون كوصم وعامل للإقصاء والشجب؟

يرى بيكو باريك أن الهوية الشخصية تلعب دورا لا غنى عنه في الحياة البشرية، فهي بوصلة عقلية وأخلاقية توجّه اختيارات الفرد وأفعاله، وتجعلها متماسكة ومتناغمة، وهي تمكّن الفرد من أن يخطط ويبني حياته، وتعطيها اتجاها، وبذلك تضمن ألا يكون الفرد مجرد انعكاس لتوقعات الآخرين، أو دمية للقوى الداخلية والخارجية. وهي تقدّم الأعراف التي يحكم بها الفرد على نفسه، وتكون أساسا لاستقامته، وهي تشير إلى كيفية سلوك الفرد في مواقف معينة.. إن اختيارات وأفعال الفرد هي ملك له، لا لمجرد المعنى البيوجرافي الذي يجعل المرء تعبيرا عنها، لكن بالمعنى الأعمق من أنها انبثقت من هذا النوع من الأشخاص وشاهدة عليه. إن الأنا التي تصنع هذه الاختيارات والأفعال ليست أنا خاوية أو صورية، بل ممتلئة بمحتوى أو شخصية محددة، لكن الفرد هو الذي يصنع هذه الاختيارات الشخصية المحدودة ويعدّ مسؤولا عنها. وبالنسبة للقديس أوجستين فإن هذا يعدّ المؤشر الأكثر اعتمادا عليه في معرفة الهوية[9]. فهل اختيارات الشخصيات السوداء في الروايتين متماسكة ومتناغمة تؤشر على هوية قائمة متحققة، أم هي خيارات قائمة على الإكراه والغصب من قبل قوى خارجية وداخلية، ما يؤشّر على حالة الاستلاب الهوياتي التي قد تعانيها الشخصيات، وكيف السبيل لدرء هذا واعادة ترميم الذات وبنائها إن حدث؟

5- رواية "العين الأكثر زرقة":

ركزت الرواية على ثيمة الجمال وارتباطه باللون، والشرخ النفسي الذي يولّده حين ينتفي، إذ يتقلّص حجم الكائن الإنساني المُستلَب الهوية ويزداد شعوره بالرهبة والانسحاق والدونية وعدم الاستحقاق؛ فالرواية ترصد حياة "فتاة صغيرة سوداء تريد أن تنهض من وجرة السواد، وترى العالم بعينين زرقاوين."[10] طفلة في الثانية عشرة من العمر

تدعى (بيكولا بريدلوف) تحكم على نفسها بقبح المنظر بعد أن ترى هذا الحكم يسري إليها ممن حولها "ففي أسفل الجفن يستقر النفور، لقد رأته كامنا في عيون كل البيض. لا بد أن هذا النفور موجه لها، لسوادها.. السواد هو المسؤول عن ذلك، وهو الذي يخلق ذلك الفراغ المشبع بالنفور في عيون البيض."[11] فتطلب الجمال الذي تراه موقعا بالعيون الزرقاء، فتتلهف إلى عينين زرقاوين لفتاة صغيرة بيضاء "في كل ليلة كانت تصلي بانتظام من أجل عيون زرقاء. لسنة كاملة ظلّت تصلي بحرارة. وبالرغم من ثبوط همتها نوعا ما، إلا أنها لم تفقد الأمل. إن امتلاك شيء رائع كهذا يحتاج إلى وقت طويل.. اعتقاد راسخ بأن معجزة فقط ستنقذها، ولم تعد ترى إلا شيئا واحدا: عيون الآخرين."[12] فلا تجد من سبيل لتحقيق ذلك إلا التوجّه إلى دجال في المدينة تبلّغه سُؤْلها، فيحتال عليها ليستخدمها في تسميم كلب مالكة البيت الذي يستأجره، الذي يكرهه، موهما إياها بأن ما سيأتيه الكلب من حركات وسلوكات غريبة بفعل الطعام الذي سيتناوله هو رسالة ربانية بقبول دعوتها وتحقيق رغبتها، فتقتنع الفتاة وتنطلي عليها الحيلة، وترى الزرقة الواهمة في عينيها السوداوين ولا أحد غيرها يرى عينيها الزرقاوين، هي فقط من تراهما وتتملى زرقتهما في المرآة التي تلازمها، كما يلازمها سؤال صديقتها عن مدى زرقتهما، ما يجعل هذه الأخيرة (الصديقة) تقتنع بجنونها، لتعيش بعد ذلك سعيدة للأبد. إنها تعيش بهذا الفعل حالة ما نعته أبوت من "كبت اشتغال الاختلاف"[13] وما حدده فانون بصيغة الشخص المثلث؛ فهذا "الانشطار الحاسم للأنا هو ما يتمثّل في توصيف فانون لبناء الذات المستعمرة بوصفها أثرا من آثار خطاب قائم على الصور النمطية: حيث تكون الذات مثبتة أساسا لكنها منشطرة ثلاثا بين المعارف المتضاربة الخاصة بالجسد، والعرق، والأسلاف. فحين تغير الصور النمطية على الترسيمة الجسدية، تنهار هذه الأخيرة، وتحتل مكانها ترسيمة عرقية قائمة على لون البشرة... ولا يعود الأمر متعلقا بإدراكي لجسدي بصيغة الشخص الثالث بل بإدراكي له بصيغة الشخص المثلث... فلست مكانا متعينا واحدا، بل مكانين، ثلاثة أمكنة."[14]

لقد حاولت الكاتبة في روايتها التي نوعت أحداثها وثيماتها بحث الطرق العميقة التي نتكوّن بها، وتتكون بها مشاعرنا ورؤانا، كيف يتقولب الوعي والفكر مع الشعور بالمغايرة ليغدو علامة ونسقا ثقافيا يتكرر بصيغ متنوّعة، ويعمل هذا النسق دوره في تشكيل التصورات وإدارة السلوكيات، وها هنا في هذه الرواية "صار اللون نسقا ثقافيا وصار التلوين وسيلة لتحقيق تصور الذات عن ذاتيتها وعن الآخر"[15] ثم طفق يتطور ليصير نسفا للهوية وتماهيا في الآخر، أو عدوانية تبتغي اجتثاث الآخر.

لقد غدا السرد في هذه الرواية مرآة كاشفة تكشف الذات الداخلية المعطوبة، أو التي شكّلها هذا النسق منذ مرحلة الطفولة، تقول إحدى الشخصيات بلسان طفلة "أصبحنا عنيدتين، مراوغتين، متعجرفتين. لم يعرنا أحد أي اهتمام، فركزنا اهتمامنا على أنفسنا.."[16] "ماتت براءتنا.. لم يعد هناك الشيء الكثير ليقال، ماعدا "لماذا". ومادام من الصعب الإمساك بـ "لماذا"، فيجب على المرء أن يلتجئ إلى "كيف"."[17] كما تكشف انعكاس التشوّه الذي يحاصر أصحابه والأوهام والأفكار المسبقة التي تأسرهم وتبرمج سلوكاتهم وعلاقاتهم مع أنواتهم ومع الآخر، والاكراهات التي تعشش في لاوعيهم بسبب اللون. فأزمة الذات مع اللون ستغدو بعد حين أزمات، لأنها ستسلب عواطف الأمومة وعواطف الأبوة والقدرة على تقدير الذات، والتعايش مع الآخر؛ فعواطف الأبوة ستتشظى لتحنو وتعطف على الطفلة حينا، ثم سرعان ما تمسخ لتتحول إلى وحشية حيوانية تنهش براءة الطفلة لتزديها حبلى بطفل أبيها. وعواطف الأمومة التي يغيّبها العوز والقهر والفقر والإجهاد تعوضها تلك التشنجات اليومية الواخزة الشديدة الإيلام، تقول الطفلة "كانت مناجاة أمي الغاضبة لنفسها تثيرنا دائما وتصيبنا بالإحباط، مناجاة مطولة مهينة، وموجعة بطعناتها رغم أنها لم تكن مباشرة إنها لا تسمي أحدا أبدا باسمه"[18] كما يعوضها إهمال وشحّ عاطفي بمقابل اهتمام مبالغ فيه بأطفال السادة البيض. إن سلب هذه العواطف وإفراغ الروح منها سيوقع نوعا من الشرخ والقسوة والعدوانية التي ستترسب في اللاشعور، وتتربص للانتقام في كل آن وحين؛ الانتقام من هذا البياض الذي سلب الاهتمام من الآباء والمعلمين وحتى الأطفال السود. لذلك ستتصارع في شخصية "كلوديا" التي تؤدي دورا محوريا في الرواية ثيمتا الخير والشرّ، فتكره زميلتها الطيبة "مورين بيرل" الفتاة البيضاء لأنها تشعرها بالاستلاب الذاتي وتفقد القدرة على التآلف معها، وعلى التفريق بين خيرية هذه الطفلة البيضاء التي تصاحبهم في الطريق وتقتني لهم ما لذ وطاب وبين شرانيتها، تقول:".. إذا كانت جميلة وإذا كان كل شخص يعتقد أنها جميلة – فهذا يعني أنا لسنا جميلات. ماذا يعني هذا ؟ يعني أننا أقل شأنا قد نكون ألطف، أذكى، ولكن

أقل شأنا... ما هو السر؟ الذي نفتقر إليه؟ وهل هو شيء مهم؟ عرفنا، في تلك الأوقات، أن مورين بيرل ليست "العدو" ولا تستحق منا هذه الكراهية الشديدة. إن الشيء الذي يجب أن نخشاه هو "الشيء" الذي جعل"ها" جميلة ولم يجعلنا كذلك."[19] إنه اللون، البياض بمقابل السواد الذي خلق الوصم والوصم المضاد "لقد سحرت المدرسة كلّها، يبتسم لها المعلمون مشجعين حين يسألونها، ولا يدفعها الأطفال السود في الحفر، ولا يرمونها بحجر، وتنحني الفتيات السود جانبا حين تريد أن تستخدم حنفية التواليت.. لم تكن مضطرة للبحث عن زميلة لتأكل معها في الكافيتريا، فالكل يتسابق إلى الطاولة التي اختارتها، حيث تتناول وجبات فاخرة تجعلنا نحس بالخجل من خبزنا... كنا فريدا وأنا، مذهولتين، مثارتين، ومسحورتين بها. وكنا نحاول أقصى ما نستطيع أن نكتشف أي عيب فيها لنستعيد توازننا، واكتفينا، في البداية، باختيار اسم بشع لها، وفرحنا فرحا شديدا حين اكتشفنا، فيما بعد، أن لها نابا – رغم أنه جميل حقا- ولكنه ناب مع ذلك، وضحكنا عندما اكتشفنا أنها ولدت بست أصابع في كل يد، وقد ترك كل إصبع نتوءا صغيرا بعد إزالته. كانت انتصارات صغيرة، ولكننا استفدنا منها قدر ما نستطيع."[20]

وكأن الكاتبة التي خرجت من بين أبناء هذا البلد لكي تتأمّل وتحلل بعمق تلك الشخصيات بجروحها الرهيبة، تعلل لا شعوريا أسباب احتدام الشرّ في الطبع الآدمي عند السود وبالتحديد إزاء البيض، وكأنها تمثّل فكر تييري هنتش حين يقول: ".. من العصي علينا بمكان أن ندرس الآخر قبل أن نخضع أنفسنا للمراقبة بإزائه."[21] تقول في إحدى حواراتها: "عندما كتبت " **The Bluest Eye**" كنت أروم إدراج هذا الصوت في الأدب، ومعالجة آثار العنصرية، ومعالجة الألم الذي يسببه اكتشاف أنك لا تساوين شيئا بسبب لون بشرتك."[22] فالكاتبة تسلط الضوء على جوانية الإنسان وتناقضاته بسبب المعاملات الصادمة، يقول صاحب كتاب الهويات القاتلة: "في كل خطوة في الحياة نصادف إحباطا وخيبة وإهانة فكيف لا تصبح شخصيتنا ممزقة؟ وكيف لا نشعر بهويتنا ممددة؟ كيف لا نشعر بأننا نعيش في عالم يمتلكه الآخرون ويخضع لقواعد يمليها الآخرون، عالم يشعر فيه المرء أنه يتيم أو غريب أو دخيل أو منبوذ؟"[23] وهدفها من هذا، التعبير عن البعد الإنساني الذي غيبته فكرة أن الملونين هم كائنات غريبة عن الغرب، يصلحون للإخضاع والتهميش، وهذه النظرة هي الطريقة التي طالما صاغ بها الغرب آخريه فساهم في تأجيج الكراهية بين الشعوب. يقول صامويل هنتنجتون: "حتى يمكن للناس أن يحددوا أنفسهم، فإنهم يحتاجون إلى آخر، فهل هم يحتاجون أيضا إلى عدو؟ من الواضح أن بعض الناس يفعلون ذلك، قال جوزيف جوبلز "أوه، يا لروعة أن تكره"، وقال أندريه مالرو "أوه، ياله من شعور بالارتياح أن تحارب أعداء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، أعداء يقظون"، هذه تصريحات متطرفة تعبر عن حاجة إنسانية منتشرة ولكن يتم كبتها بوجه عام."[24] وهي الحاجة التي آمنت بها أمريكا وبنت سياستها عليها.

1-5 مجازات السرد واجتراح قيم اللون:

إن الرواية عبر مجازات لغتها، والخطاب الذي تنشئه حول الأشخاص والأحداث تسهم في رسم وجوه جديدة وتعريتها من كل قناع، كما تسهم في اجتراح قيم مضافة عن اللون باعتباره مصدرا للكتابة وموضوعا للتأمّل والاعتبار، كيف يصير اللون وصما ويحدث أقوى الأثر في الفكر والكيان، تقول بشاعرية واخزة: "كانوا يعتقدون أنهم قبيحون. لكن قبحهم كان فريدا، ولم يستطع أحد أن يقنعهم أن القبح ليس عدوانيا وقاسيا.. كانوا يلبسون قبحهم، يرتدونه إذا صحّ التعبير، رغم أنّه لا يعود إليهم. تنظر إليهم فتتعجب لماذا هم قبيحون، وحين تنظر إليهم عن قرب أكثر، لا تستطيع أن تجد مصدر هذا القبح. وتدرك أن ذلك نابع عن اقتناع، اقتناعهم هم، كما لو أن سيّدا غامضا عارفا بكل شيء، أعطى لكل منهم ساعة قبح ليلبسها، وكل منهم قد قبل ذلك راضيا. كأن السيد الغامض قد قال: "أنتم أناس قبيحون"، فنظروا إلى أنفسهم فلم يروا شيئا يناقض هذا الإعلان، بل رأوا، في الواقع، دعما له يطلّ عليهم من كل لوحة إعلان، وكل فيلم، وكل لمحة. لقد أخذوا القبح بأيديهم، ورموه فوقهم مثل عباءة، وأخذوا يطوفون العالم معه."[25] لقد تحوّل إلى نوع من الرهاب، فوبيا اللون والعرق، ظاهرة لوصم الذات "كنت اشعر بالاشمئزاز في جسدي، والرعب من تلك العيون المدورة البلهاء، والوجه المسطح، والشعر المجعد.."[26]

يرى صامويل هنتنجتون في بحثه في ملف الهوية في كتابه "من نحن؟" أنه "يتم تحديد الهويات بمعرفة الذات ولكنها نتاج التفاعل بين الذات والآخرين، كيف يتصور الآخرون فردا أو جماعة، هو الذي يؤثر على التعريف الذاتي لهذا الفرد أو الجماعة. فإذا مرّ أحدهم بموقف جديد وتم تصوره كغريب لا ينتمي، فمن المحتمل أن هذا الشخص سيعتقد أنه كذلك.

وإذا كانت هناك غالبية من الناس في بلد ما تنظر إلى أعضاء جماعة من الأقلية على أنها متخلّفة ومتدنية، فإن الجماعة من الأقلية ستنظر إلى نفسها على أساس هذا المفهوم، وعندئذ يصبح ذلك جزءا من هويتهم. وعلى العكس، قد تثور هذه الجماعة على هذا الوصف وتعارضه. وقد تأتي المصادر الخارجية للهوية من البيئة المباشرة ومن المجتمع المحيط، أو من السلطات السياسية، والحقيقة أن الحكومات هي التي أضفت هويات عنصرية أو هويات أخرى على الناس."[27] ويقول: "ويمكن للناس أن يتوقوا إلى هوية ما ولكنهم لا يستطيعون أن يحققوها إلا بعد أن يرحب بهم أولئك الذين سبق لهم اكتساب هذه الهوية."[28]

إن عدم الترحيب هذا –وعلى مدار الأزمنة- جعل الكاتبة تقتحم مناطق منسية ومطمورة وغير ملتفت إليها، إنه نوع من التموقع في الزوايا المعتمة، والقدرة على التماهي مع الشخصيات؛ شخصية الطفلة "كلوديا" وأختها "فريدا" اللتين تتنازلان عن كل أحلامهما في سبيل حلم واحد، وهو تحويل مشاعر الكراهية إلى مشاعر حب لطفل الحالمة بالعيون الزرق، الذي يتمنى الكل موته قبل ولادته لكونه ابن أبيها.

2-5 الهوية ومحنة العلاقة بين المعنى والقيمة/ لعبة التنميط والتنميط المضاد:

إن تركيز الكاتبة على الطفولة التي تَصدر عن أحكام جاهزة ناشئة عن تكوين متمّط محصور في الشرنقة التي نسجتها العائلة أو الهويات المضطهَدة، يحيلنا إلى تلك التكتلات المفاهيمية الصادرة عن مسلمات فكرية عميقة غير معلنة، تتساوق مع رؤى مؤدلجة ومتمّطة ومستنسخة بعيدة وغائرة في الذاكرة التاريخية بسبب ملابسات الاستعمار والاستعباد والهيمنة والتعالي، وهي خطيرة لأنها تشكّل مصدرا من مصادر سوء الفهم لثقافة وإيديولوجية المجتمعات والأقليات العرقية، بما تعطيه من صور وأحكام مضللة، ومن ثمة فإن الكاتبة تستهدف بهذا الطرح تبديد الآراء الخاطئة والأحكام الجاهزة والناجزة عن الجماعات والأقليات العرقية والقومية، أو من هذه الأخيرة تجاه الآخر. فما هذه الشخصيات التي حمّلتها الكاتبة هذه الأفكار إلا انبجاسات أو تناصات من رؤى وأفكار عامة، فالصورة المحجوزة في الأذهان عن الملونين تختزل في حزمة من الصور النمطية السلبية، التي تشوّه الذات والهوية الثقافية والتاريخية، والصورة المحجوزة في الأذهان عن البيض بالمقابل أيضا تختزل في حزمة من الصور النمطية السلبية، التي تضاعف درجات التشويه، الأمر الذي يحيل الهوية إلى محنة من حيث العلاقة مع المعنى والقيمة، أو إلى مشكل من حيث العلاقة مع المختلف والآخر، أو إلى هوة من حيث العلاقة مع المطالب والرغبات والقرارات والاختيارات.

وقد أسهمت مخاتلات الرواية الحوارية بين الشخصيات في تأطير نظرة المجتمع الزنجي للآخر الأبيض، وانطباعاته عنه، وقد اتخذت أنماطا مختلفة يرصد عبرها ما سجّله في ذاكرته عن الأبيض من رؤية تتكشّف عنها أيديولوجية المجتمع برمته أو ما يمكن أن يشكّل نسقا عاما، من خلال الطروحات الفردية للشخصيات، لتتبدى الهوية صيغة مركبة وملتبسة مبنية على التعدد والتعارض، تجلي عقدة من الميول والأهواء، والتحولات والتقلبات، سواء من خلال شبكة العلاقات والروابط بين الملونين بعضهم ببعض أو بين الملونين والبيض، توليفة من تسامي التعالقات الإنسانية الراقية ومن انحطاطها، لتكشف المساحات الفارغة والثغرات الفاضحة على صعيد النفس التي يصيبها نوع من الشرخ في تعاملها لا مع الآخرين بل ومع هويتها ذاتها.

6- رواية "ليكن الرب في عون الطفلة":

تصوّر رواية "ليكن الربّ في عون الطفلة" الصراع داخل التراتبية السوداء ذاتها، لتبرز قلق الانتماء والهوية وأزمة المغايرة والاحتكاك بالآخر، وتنبني على أشكال تمثيل الذات لمواجهة الآخر المغاير لونيا (القائم على التراتب في اللون الواحد)، أو المغاير عرقيا، وتجديد طرق إعادة بناء الذات المهمّشة والمهشّمة وترميمها، والمحو التدريجي للعقد؛ عقد الطفولة واللون بعد تنكّر وتنصّل الكثير من الزنوج من بني جنسهم ومن أبنائهم، بعامل الاختلاط اللوني الذي جرّه تلاقح البيض والسود - رغم ما بينهم من استعلاء وفوقية/ ووضاعة ودونية - فنجمت تدرّجات لونية مع الأجناس الخلاسية التي راحت تتبنى نفس نظرة البيض الاستعلائية مع السود؛ نظرة النبذ والإقصاء، تقول أم البطلة: "عليك أن ترى جدتي، كانت كأنها بيضاء ولم تعد تتحدث إلى أبنائها، وتعيد أي رسالة تتلقاها من أمي وخالاتي دون فتحها. وأخيرا فهمن الرسالة دون رسالة وتركنها وشأنها. كل الخلاسيين والمهجنين فعلوا ذلك في ماضيهم تقريبا."[29] وكذلك فعلت الأم مع ابنتها؛ فبطلة الرواية "لولا آن" تعاني الفراغ العاطفي والهجر منذ ولادتها بسبب سواد بشرتها التي

صعقت الأم والأب الخلاسيين عقب ولادتها مباشرة "كان لونها صليبا عليها حملته دوما"[30]. فهجر الأب الأسرة، وتولّت الأم مرغمة تربية هذا السواد مع نفور دائم منه، تقول الأم: "كانت سوداء جدا لدرجة أرعبتني، سوداء مثل منتصف الليل.. لي بشرة فاتحة وشعر ناعم، كنت من النوع الذي نسميه خلاسية، وكذلك كان والد لولا آن. ليس هناك أحد في عائلتي له بشرة بهذا اللون. أظن أن لون القطران هو الأقرب."[31] وقد أدى هذا إلى سلوكات جنونية من أمها معها، تسجّل الأم شهاداتها فتقول: "منذ البداية في جناح الولادة أحرجتني الطفلة "لولا آن".. أعرف أنني كنت مجنونة لدقيقة ذات مرة لأني وضعت بطانية على وجهها وضغطتها - لثوان قليلة فقط - لكني لم أستطع فعل ذلك رغم أنني تمنيت لو أنها لم تولد بهذا اللون الرهيب، وفكرت أيضا بتركها في ملجأ للأيتام في مكان ما."[32] وتذهب إلى حرمانها من كلمة أمي حتى لا تنسب إليها، تقول: "طلبت منها أن تناديني "سويتنس" بدلا من أمي أو ماما، لقد كان ذلك أكثر أمانا. فأن تكون بهذا السواد ولها شفتان أراهما غليظتين جدا وتناديني ماما سيشوش الناس."[33] بل كانت تعيش حالة رهاب من نظرات من يرى سواد ابنتها "فعلت ما بوسعي ولم أصطحبها خارج المنزل كثيرا، لأنني لو دفعتها بالعربة فلا بد أن الأصدقاء والغرباء سيميلون ويسترقون النظر ليقولوا شيئا لطيفا، فيصابون بالذعر ويقفزون إلى الوراء متجهمين."[34]

وقد جرّ هذا البطلة في فترة الطفولة، في ظل الخوف من الموت الذي كان يلوح خلف الصورة المرعبة للهجر الأمومي بعد تحقق الهجر الأبوي والحاجة إلى احتواء نفسي وعاطفي من قبل من حولها، إلى شهادة زور ضد معلمة بيضاء بريئة كلفتها السجن لمدة خمسة عشر عاما، فقط لتحظى بإعجاب أمها وامساكها من يدها، تقول بعد شهادة الزور وإدانة الضحية: "..أمسكت (تعني أمها) بيدي، لم تفعل ذلك قبلا أبدا وأدهشني ذلك بقدر ما أسعدني لأني كنت أعرف دوما أنها لا تحبّ لمسي.. كان النفور يعلو وجهها حين كنت صغيرة.. اعتدت أن أدعو لتلطمَ وجهي أو تصفعني لأشعر بلمستها فقط، كنت أتعمد ارتكاب الأخطاء لكن كان لديها طرق لمعاقبتي دون أن تمس بشرتي التي تكرهها"[35] لقد كانت شهادة الزور عندها آلية دفاعية هائلة ضد النبذ والهجر والفقد والوحدة.

ترتد هذه الذكريات الأليمة - التي لم تتخلّص منها أصلا – في مرحلة النضج وتسلمها إلى أزمات نفسية تجعل جسمها معرضا لتغيرات مورفولوجية؛ إذ يتقزّم ويرتدّ إلى حجم سن الطفولة، وهذا يجعلها تؤمن بضرورة التزام حمية نفسية للتخلّص من العواطف المعذّبة، التي نمت معها وامتدت إلى حاضرها لتشوهه، خاصة بعد الانتكاسة العاطفية الجديدة مع صديقها.

هكذا وعت بطلة رواية "ليكن الرب في عون الطفلة" التي عذبتها أصولها الإفريقية المنبوذة في أعماقها، أنّ الوعي بذاتها الزنجية والاعتراف بخصوصيتها وتفرّدها هو أول شرط لإعادة الاعتبار لذاتها، ورفع مظالم أمها وأعباء الذاكرة الطفلية، فحاولت الانفلات من مجارات الآخرين في إدانة ذاتها بتجاوز نظرتهم الفوقية الاستعلائية وتكريسها كأول إستراتيجية دفاعية تكسبها شرعية المساواة مع الآخر، ثم راحت تتسامى على عطبها بامتهان تزيين الأخريات في عملها الذي احترفته كمديرة إقليمية لشركة مستحضرات التجميل، الذي جعلته قبلة ومحجة للأنظار. والعكوف على تزيين النساء بمختلف ألوانهن وأعراقهن، اللائي صرن لا يتنازلن عن خدماتها، لتغدو والحال هذه صانعة الجمال، فضلا عن التفنن في منظرها الذي صار لافتا للأنظار والإعجاب بإفراطها في التزام الثياب البيضاء، عساها تعوّض حاجتها إلى حضور البياض، لترسم بذلك ملامح صورة واقية.

1-6 إغناء الهوية وعلاج تشوهات اللون:

يرصد هومي بهابها **Homi Jehangir Bhabha** في كتابه "موقع الثقافة" مشهدا أورده فرانز فانون **Fanon Frantz** في "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" تختصره نظرة وكلمة تصدر عن فتاة تلخّص أصل الوسم التي توسم به الذات ضمن الممارسات والخطابات العنصرية في الثقافة الكولونيالية يقول: "في إحدى المناسبات تعمد فتاة بيضاء إلى تثبيت فانون في نظرة وكلمة وهي تلتفت لتتماهى مع أمها: انظري زنجي ... ماما، انظري الزنجي! أنا خائفة. لتتردد أصداء هذا المشهد إلى ما لا نهاية في كامل مقالة فانون "واقعة السواد"، ويستنتج فانون معلقا: ما الذي يمكن لذلك أن يمثله بالنسبة لي سوى حالة من البتر والاستئصال، والنزف الذي رشق جسدي كله بدم أسود."[36] وهو ذات الرشق والبتر الذي عانته بطلة الرواية.

إن ما سعت البطلة إلى تأكيده لتجاوز هذا الرشق وإلغاء هذا البتر والاستئصال هو الاعتراف بخصوصيتها، ونبذ ومحو تلك الصور النمطية والكليشيهات السلبية التي اختزلها البيض فيها عبر التاريخ وأقنع بني جنسها بها فحدثت هذه التراتبية والطبقية المقيتة، فكانت البطلة تجاهد لإخفاء وعلاج تشوهات هذا اللون في أعماقها بالتعويض عنه بمظاهر خارجية تنسيها عذاباتها النفسية بالصالون والألبسة من جهة، وبمحاولة خلق مساحات ولغات للتداول والتبادل مع الآخر بغية إغناء الهوية بالتواصل والتصالح معه. فالهوية ها هنا مصالحة مع الذات، ومصالحة مع من لا نرضى به، فرسمت بذلك مسارين لتتقن فن التسوية مع الذات ومع الآخر.

إن توني موريسون جعلت بطلتها تعي أن "الانغلاق في ذهنية المعتدى عليه أكثر خطر على الضحية من العدوان ذاته.. وهذا الأمر يصح على المجتمعات مثلما يصح على الأفراد، إذ نتقوقع ونتحصن ونحمي أنفسنا من كل شيء، وننغلق ونجتر ونتوقف عن البحث والاكتشاف والتقدّم، فنخشى من المستقبل ومن الحاضر ومن الآخرين."[37] لقد آمنت الكاتبة بأن "هذه الجروح هي التي تحدّد في كل مرحلة من مراحل الحياة موقف البشر تجاه انتماءاتهم، والتراتبية ما بينها.. فعندما يضطهد المرء بسبب ديانته وعندما يتعرض للإهانة أو السخرية بسبب بشرته أو لهجته أو ثيابه المرقعة فهو لن ينسى ذلك"(38) وهو ما وقعت البطلة ضحية له بدءاً، لذلك آمنت بعد ذلك بضرورة تقبل لونها وكيانها كما هو وألا تضطر إلى مواراته، يقول أمين معلوف "يجب ألا يشعر أحد أنه مهدد أو محتقر أو مستبعد أو "ملعون" لدرجة أن يكون مضطرا لأن يواري بخجل ديانته أو لونه أو لغته أو اسمه أو أي عنصر مكوّن لهويته، لكي يتمكن من العيش وسط الآخرين. كل فرد يجب أن يكون قادرا على الاضطلاع بكل انتماء من انتماءاته .. دون خوف وضغينة. "[39] وعت البطلة هذه الحقيقة جيدا، وبدل من أن تتلاشى وتضمر كما ضمر جسدها بدءاً حين شعرت بالعجز وعدم القدرة عن دفعه، أعلنت التحدي والشموخ باللون الذي وُهِبَته، وبإتقان فن التسوية مع الآخر حين جعلته في حاجة إليها لتجميله. يقول مارك فريمان **Mark Freeman** "ما هو عرضة للخطر، في النهاية، الكيفية التي ينبغي أن نفكر بها في الناس وفي أنواع الصور والاستعارات المناسبة أكثر لفهمهم."[40] هكذا نفذت إلى الصور والاستعارات المناسبة لفهم الآخر ولفهم ذاتها، فتمكنت من إنقاذ هويتها من الاستلاب، وكذا إنقاذ صديقها الذي يؤدي دور الشخصية التي لا تحيا حياتها ولكن تكابدها بفعل الاختلالات والأزمات والشروخات النفسية.

ثم إن الكاتبة وهي تتوخى بناء الهوية سرديا، لا تتوخى البعد النفسي والاجتماعي والجمالي فقط وانما تتقصّد البعد الأخلاقي، لذلك فإن البطلة تحاول أن تكون ذاتا سوية على كل المستويات، وبخاصة المستوى الأخلاقي لأنه الكفيل بتطهيرها من عذاب الضمير مع المعلمة البيضاء التي أدانتها بشهادة زور، لذلك كان السلوك الذي كاد يكلفها حياتها (حين تعمدت الذهاب إلى بيت المعلمة بعد الإفراج عنها للاعتذار فأوسعتها الأخيرة ضربا كاد يودي بحياتها، فتقبلت الجزاء ولم تشتك إلى الشرطة) لقد كان هذا السلوك نوعا من التعهد الخلقي الذي قطعته على نفسها، وهو يشي بالنمط الخلقي السوي بعيدا عن الارغامات الاجتماعية والعاطفية، ما يوحي باغتناء واستواء الهوية الشخصية التي كانت بوصلة عقلية وأخلاقية توجّه خياراتها وأفعالها.

2-6 بين إغناء الهوية وتهشيمها:

إنا نعزو مسؤولية الأعمال والأحداث والمشاعر التي تورطت فيها الشخصيات الطفلية في "العين الأشد زرقة" و"ليكن الرب في عون الطفلة" إلى تدفق تفاعلات هذه الشخصيات مع البيئة المادية بما فيها أجساد هذه الشخصيات باعتبارها جزءا من البيئة، بل ومدار التوترات المهيمنة على البيئة اجتماعيا وسياسيا وثقافيا ونفسيا. يرى روم هاريه أن "الشخص يبتكر شبكة من الحالات السيكولوجية شبه الدائمة والحالات سريعة الزوال في سياق التفاعل مع الآخرين؛ لكنها نتاج لا مصدر."[41] إذا كانت هذه الحالات نتاجا مع الشخصيتين في بداية هذا التفاعل إلا أنها سرعان ما صارت مصدرا حين أسهمت في بناء الهوية الشخصية مع بطلة "ليكن الرب في عون الطفلة" أو سلبها مع صاحبة "العين الأكثر زرقة" فقد تمكنت الأولى في نهاية المطاف من الاقتناع بنفسها وروحها المفعمة بالعزة والأنفة لما تملك من قدرات وامكانيات ومواهب وجمال روحي، بعد أن وعت بأنه الجوهر الأصلي لقيمة الإنسان والذي هو أجمل وأعز من المنظر الخادع الذي نزينه بالألوان، وبهذا رحبت بالاختلاف وسعت إلى إغناء الهوية بالتواصل مع الآخر. أما صاحبة "العين الأكثر زرقة" التي تعكس ما عانته بعض الشعوب من الشعور بوصم الذات والتنكر لها، وصور الضياع

الإنساني، والسلوك غير الموجه، المفرغ للإنسان من جميع المضامين، فلم تتمكن من التخلّص من هذه العقدة بل وضحت عقدة جديدة تمثلت في هشاشة الانتماء وتهشم الهوية، وسرعة الذوبان في الآخر، ومن ثمة القابلية للتلاشي أو الاستعمار. وبهذا استطاعت الكاتبة أن تلمس أبرز مواطن الضعف والقوة في الشخصية الإنسانية التي تسهم في بلورة وتغيير وجه التاريخ.

خاتمة:

سعت هذه الدراسة إلى استكشاف الأبعاد الشعرية والفنية في أعمال الروائية الأفروأمريكية توني موريسون، وتحليل كيفية معالجتها لقضايا الهوية والعنصرية والوصم باللون في سياق مجتمع قائم على التراتبية العرقية. وقد انطلق البحث من إشكالية محورية تتعلق بحدود الشعرية والملامح الجمالية التي وظفتها الكاتبة لتصوير تشكّلات الهوية لدى الشخصيات الملونة، وجهودها في صنع هوياتها الخاصة والحفاظ عليها رغم الضغوط الاجتماعية والعنصرية.

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج المهمة، أبرزها:

- نجحت موريسون في توظيف الرواية لتفكيك المركزية اللونية والتراتبية الاجتماعية القائمة على التمييز العنصري.
- دافعت عن المهمشين والمقموعين الذين أخرسهم النظام السياسي والاجتماعي عبر أدبها.
- حوّلت التجربة الزنجية الأمريكية بكل مأساويتها وثرائها إلى مادة فنية روائية غنية.
- أثرت الفن الروائي بمضامين جديدة مستمدة من التنوع العرقي والهوية السوداء.
- عرّت الخطابات العنصرية وكشفت الخراب القيمي والروحي الناتج عن الوصم اللوني.
- سعت لاستعادة الذاكرة الجماعية ومقاومة النسيان التاريخي للسود.
- أكدت إمكانية بناء هوية مستقلة رغم الإقصاء والتهميش المجتمعي.

وفي ضوء هذه النتائج، نقترح ضرورة توسيع الدراسات المتعلقة بالأدب ما بعد الكولونيالي والتركيز على الأبعاد الجمالية والفنية في تمثيل قضايا الهوية والعنصرية، مع إيلاء اهتمام خاص لأعمال الكاتبات الأفروأمريكيات الأخريات ومقارنتها بتجربة موريسون. كما يوصي بدراسة تأثير هذه الأعمال الأدبية على الوعي الاجتماعي والثقافي المعاصر، وإمكانية توظيفها في مواجهة الخطابات العنصرية المتجددة. ويبقى المجال مفتوحًا لمزيد من البحث في العلاقة بين الشعرية الروائية وسياسات الهوية، وكيفية مساهمة الأدب في إعادة بناء الذاكرة الجماعية للمجتمعات المهمشة.

-قائمة الإحالات:

(*)-توني موريسون (الاسم الأصلي: كلويه أنطوني دفورد) ولدت عام 1931 في كليفلاند، إفريقية الأصل، أمريكية الجنسية. حازت على جائزة "بوليتزر" أكبر الجوائز الأدبية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1988، وتحصلت على جائزة نوبل للآداب عام 1993، وعلى ميدالية المساهمة المتميزة من مؤسسة الكتاب الوطنية سنة 1996، وعلى الوسام الرئاسي للحرية من الرئيس باراك أوباما سنة 2012. تقول في إحدى حواراتها: "أنا لا أكتب انتقاما من العنصرية بل لتغيير اللغة إلى لغة لا تنتقص من الناس، لا أحمل سيفا، ولا أبتغي رد المظالم، أريد ملء الفراغ بصوت النساء السوداوات". توني موريسون، رواية "العين الأكثر زرقة"، تر: فاضل السلطاني، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 1997، ص 141.

1-هومي. ك. بابا: موقع الثقافة، ترجمة: ثامر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004، ص 167.

2- توني موريسون: رواية "العين الأكثر زرقة"، ترجمة فاضل السلطاني، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 1997، ص 141.

3- إليس كاشمور: صناعة الثقافة السوداء، ترجمة: أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص31.

4- توني موريسون: رواية "فردوس"، ترجمة: علي باشا، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999، ص32.

5- ميشال فوكو: المعرفة والسلطة، عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص: 10.

6- جميل حمداوي: النظرية العرقية في الأدب والنقد، http://www.alukah.net/literature_language/0/39409 18-03-2012 .
7- نفسه.
8- إيليس كاشمور: صناعة الثقافة السوداء، ص: 16.
9- ينظر بيكو باريك: سياسة جديدة للهوية – المبادئ السياسية لعالم يتسم بالاعتماد المتبادل – ترجمة وتقديم: حسن محمد فتحي، مراجعة: محمود ماجد عبد الخالق، المركز القومي للترجمة ، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013، ص: 34-35.
10- توني موريسون: العين الأكثر زرقة، ص: 147.
11- نفسه، ص: 41.
12- نفسه، ص: 39.
13- هومي بابا، موقع الثقافة، ص 167.
14- نفسه، ص 167-168.
15- نادر كاظم: تمثيلات الآخر - صورة السود في المتخيل العربي الوسيط ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، من مقدمة الغذامي للكتاب، ص: 12.
16- رواية "العين الأكثر زرقة"، ص: 158.
17 - نفسه، ص: 6.
18 - نفسه، ص: 20.
19 - نفسه، ص: 62-63.
20 - نفسه، ص: 52-53.
21- تيبري هنتش: الشرق الخيالي ورؤية الآخر – صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة: مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2006، ص: 13-14.
22 - مجلة "ماغازين ليتيرتر" الفرنسية، فن وثقافة، حوار مع توني موريسون، كل فن حقيقي سياسي، حاورها جليد محمد، http://m.alyaoum24.com/163570.html :
23 - أمين معلوف: الهويات القاتلة قراءات في الانتماء والعولمة،تر: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999، ص: 68.
24 - صمويل . ب. هنتنجتون: من نحن؟ المناظرة الكبرى حول أمريكا، ترجمة: أحمد مختار الجمال، مراجعة وتقديم: السيد امين شلبي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009، ص: 59.
25 - العين الأكثر زرقة، ص: 32.
26 - نفسه، ص: 17.
27- صمويل هنتنجتون: من نحن؟، ص: 57.
28- نفسه، ص: 58.
29 - توني موريسون: ليكن الرب في عون الطفلة، تر: بثينة الإبراهيم، دار أثر للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2016، ص: 8.
30- نفسه، ص: 12.
31 - نفسه، ص: 8.
32- نفسه، ص: 10.
33 - نفسه، ص: 11.
34 - نفسه، ص: 11.
35- نفسه، ص: 36.
36- هومي بابا: موقع الثقافة، ص 160.

37 - أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص110.
38 - نفسه، ص: 27.
39 - نفسه، ص: 109-110.
40- مارك فريمان: "من المادة إلى القصة – السرد والهوية وإعادة تنظيم الذات"، ضمن كتاب السرد والهوية – دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، تحرير جينز بروكمبير و دونال كربو، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015، ص: 462.
41 - روم هاريه: الميتافيزيقا والسرد تفرد الذات وتعددها، فصول العددان 87-88 خريف 2013 . شتاء 2014، ص 270.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- توني موريسون، 1997، رواية "العين الأكثر زرقة"، ترجمة فاضل السلطاني، دار الطليعة الجديدة، ط1، دمشق.
- توني موريسون، 1999، رواية "فردوس"، ترجمة علي باشا، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق.
- توني موريسون، 2016، رواية "ليكن الرب في عون الطفلة"، ترجمة بثينة الإبراهيم، دار أثر للنشر والتوزيع، ط1، المملكة العربية السعودية.

ثانياً: المراجع:

- أمين معلوف، 1999، الهويات القاتلة – قراءات في الانتماء والعولمة، تر: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق.
- إليس كاشمور، 2000، صناعة الثقافة السوداء، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- بيكو باريك، 2013، سياسات جديدة للهوية – المبادئ السياسية لعالم يتسم بالاعتماد المتبادل، ترجمة وتقديم حسن محمد فتحي، مراجعة: محمود ماجد عبد الخالق، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة.
- تييري هنتش، 2006، الشرق الخيالي ورؤية الآخر – صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، دمشق.
- جينز بروكمبير ودونال كربو، 2015، السرد والهوية – دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة.
- روم هاريه، 2014، "الميتافيزيقا والسرد تفرد الذات وتعددها"، المختار: دراسات في الهوية، مجلة فصول، العددان 87-88، خريف 2013 - شتاء 2014.
- صمويل ب. هنتنجتون، 2009، من نحن؟ المناظرة الكبرى حول أمريكا، ترجمة أحمد مختار الجمال، مراجعة وتقديم: السيد أمين شلبي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة.
- ميشال فوكو، 1994، المعرفة والسلطة، ترجمة عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان.
- نادر كاظم، 2004، تمثيلات الآخر - صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت.
- هومي. ك. بابا، 2004، موقع الثقافة، ترجمة ثامر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة.

رابعاً: المواقع الإلكترونية:

- جليد محمد، "حوار مع توني موريسون: كل فن حقيقي سياسي"، مجلة "ماغازين ليتيرير" الفرنسية، فن وثقافة، متاح على الرابط https://alyaoum24.com/163570.html : تاريخ النشر: 2013/08/12 تاريخ الزيارة: 2025/04/15
- جميل حمداوي، "النظرية العرقية." في الأدب والنقد، بتاريخ: 18-03-2012 . تاريخ الزيارة: 2025/04/17

http://www.alukah.net/literature_language/0/39409